عاصي الرحباني... بعدك على بالي

هكذا أبدع زياد أعجوبة «إلى عاصي»

التحية شيء والتكريم شيء آخر. بعد رحيله، قدّمت لعاصي الرحباني تحيات عدّة، منها ملفنا هذا وهو بالمناسبة لا يرقى إلى منزلة أدنى تكريم ممكن. ريما الرحباني قدّمت لوالدها، في مجالها (الإخراج) أكثر من تحية، كانت كلّها لائقة، فيها الكثير من الحب والتقدير.

لكن عاصي الرحباني لم يُكرَّم إلاّ مرّة واحدة بعد غيابه: أسطوانة «إلى عاصي». فهي ليست عملاً غنائياً موسيقياً. إنها أعجوبة. الصوت، صوتها، أعجوبة. الألحان أعجوبة. التوزيع الموسيقي — ومن غيرك يا زياد؟ — أعاجيب.

رحل عاصي الرحباني في 21 حزيران (يونيو) 1986. بدأ زياد الرحباني عام 1988 العمل على إعادة توزيع 17 أغنية ومقطوعة موسيقية واحدة («جسر القمر» التي تفتتح الأسطوانة وتختتمها، بتوزيعَين مختلفَين... طبعاً!) من ألحان الأخوين رحباني لإنجاز «إلى عاصي». والأدق أن العمل على هذا التكريم بدأ في حزيران 1986، قبيل رحيل عاصي ببضعة أيام، عندما وزّع زياد في بريطانيا، خلال التحضير لحفلات فيروز في لندن، أغنية «شتّي يا دنية». إدراج هذه الأغنية في البرنامج في اللحظة الأخيرة دفعه إلى كتابة توزيع جديد لها في ليلة واحدة (!)، لتكون أوّل وردة في باقة أغنيات «إلى عاصي». استمر العمل على الألبوم بين اليونان وبيروت حتى عام 1995. نفّذت «الأوركسترا السمفونية للإذاعة الرسمية اليونانية» التسجيل بقيادة زياد الذي أضاف عزفه على عدّة آلات، على رأسها طبعاً البزُق والبيانو. والملفت أنه ساوى في الحضور بين هاتَين الآلتين العزيزتَين أولاً على قلب عاصي وثانياً على قلبه.

صدر «إلى عاصي» عام 1995 على CD وكاسيت. حورِبَ من قبل أعداء الموسيقى. لكن الجَبل صمد وبات من التسجيلات الأكثر مبيعاً في تاريخ لبنان. وبضمير مرتاح نقول، إن أردتم أن تهدوا أجنبياً أو مبتدئاً ألبومَين لفيروز، فليكن أحدهما «إلى عاصي» وإن أردتم واحداً فقط، فليكن «إلى عاصي». فهو بدون شك وبدون منازع أهم مادة صوتية صدح بها هذا الشرق في تاريخه لغاية تاريخه.

منذ سنوات قليلة، انبعثت الحياة بأسطوانات الفينيل (Vinyl) بعد غيبوبة دامت أكثر من ربع قرن لأسباب عدّة لا مجال للدخول في تفاصيلها الآن. هكذا، وعندما تأكد منتج «إلى عاصي» (صوت الشرق) من عودة الاهتمام بالأسطوانات القديمة، أعاد طبع الألبوم التاريخي. نعم، بات «إلى عاصي» متوافراً في السوق على فينيل 180 غرام (أسطوانتان في علبة واحدة — علّتها أنها محشورة في جيب واحد بدلاً من اثنين وأهمِلت كل المعلومات القيّمة الموجودة في الكتيّب الأصلي، توفيراً لبضعة سنتات!). إنه أجمل حدث ممكن يحصل لمن يعشق هذا العمل ويعرف القيمة الصوتية للأسطوانات الفينيل. إنها أحلى هدية في عيد الموسيقى، في ذكرى غياب عاصي عن الوجود، وفي غياب فيروز وزياد عن السمع!

بشير...

متوسطاً زياد وفيروز

التركة الرحبانية: شو بيبقى من الرواية؟

عناية جابر

مع مرض عاصي، ثم موته في 21 حزيران (يونيو) 1986 في «مستشفى الجامعة الأميركية» في بيروت، اهتزّت روح اللحن، وروح الكلمة، فيما بقي صوت السيدة مُدوّراً متكاملاً وشاعرياً، حتى في غنائها لزياد ذلك الكمّ الجديد من يوميات عشق لبناني، رقته ونفاد صبره وتحدّيه وحنوّه الى «عنتريات غرامية» لمحبين لبنانيين تحديداً.

بعد موت عاصي، دُقّ ناقوس الخطر، ولاح بيّناً حال انسداد أفق. افضى فعلاً الى انهيار كبير بدل أن نقول انزياحاً، لنرى ونسمع بملء العين والسمع أفول مملكة ذات مغزى لبناني، لمّا أن ذلك الأفول قطع مع ذاكرة لبنانية اقتحمت عالم المستقبل. ذاكرة لبنانية فولكلورية، عربية تراثية.

عرف عاصي تماماً، ما يريدهُ من الموسيقى العربية. رأى شيئاً محدداً ومشى إليه، وأبصر ذلك الأفق العربي المنفتح بمعية صوت فيروز فذهب إليه باحثاً، مُهتدياً بالسليقة الشعورية العصبية. والنتيجة أنه اهتدى في نهاية الأمر الى عروبية واسعة انطلاقاً من لبنانية بالغة الخصوصية.

أخَوة عاصي ومنصور ليست بالضرورة أخوّة الصورة الواحدة ولا تطابقها. طبعاً من دون تلك الأخوّة ما كان للفن اللبناني شأنه الذي نعرف، سوى أن الفرق بين الإثنين موجود، فثمة تأثر منصور بالكلاسيك الشرقي والكلاسيك الديني المسيحي (لا تهجرني/ لا تنساني). كما عند منصور الظل الخفّي الى حد، للطابع المصري والطرب المصري (غالي الدهب غالي).

عند عاصي تلك النسائج والوتائر التي محضها كل «عبقريته»، وعجنها بمخزونه وتأثراته وفيها احاسيس الناس ومخيلاتهم ورغباتهم («علموّني هنّي علموّني»، «نسّم علينا الهوى»، «بحبك ما بعرف هنّ قالولي»، «نسّم علينا الهوا») الى سواها من أغنيات طالعة من التربة الخاصة بنكهة عاصي وهذيان عاصي وحنان ورقة عاصي.

يصعب بعد موت عاصي (لا نريد هنا الدخول في متاهات الخلافات بين الأبناء والورثة) على المتتبعين والمهتمين بحال الغناء والموسيقى والكلمة، العربي واللبناني على وجه الخصوص، الوقوع راهناً على سوية ما، في عملية تراكم حضاري فنّي مُرتجى. ذلك أن الانقطاع بائن وجلّي ومُدوٍّ وصارخ، ومُفارق حتى اللحظة نال من كل الحيوية اللبنانية التي تهاوت كما لو فُرّغ داخلها، ومن عدم استفادتها مما تركهُ ذلك الرجل.

> اهتدى الى عروبية واسعة انطلاقاً من لبنانية بالغة الخصوصية

بل الأصحّ كما لو أنها انقلبت على انجازاته في حركة قصدية تهدف الى تسطيح الفن اللبناني والعربي تالياً، بحجة جعل السائد المشوّش متماشياً مع العصر، ومفارقاً لتلك اللمعات الجمالية التي لن تتكرر بعد رحيل عاصي. ما نسمعه اليوم يبعث على الشعور بالغرابة بعبارة رقيقة لكي لا نُغالي، وبالقلق الذي يصل الى حد التجديف بأغلب المغنيين والمغنيات: الصوت، اللحن، الكلمة، الإحساس، المخيلة... ثم الانتماء، فلا تعرف الى ماذا ينتمي هذا الذي نسمعه، وهنا ميزة عاصي وتفرّده، معه تحس بدفء الوطن والحبيب والأشياء... والله.

بعد رحيل عاصي، ثمة ذلك التكرار عند الرحابنة، كمن يسرق الحانه نفسه ويكررها ويتعامل معها كأنها الحان غريبة عنه، يُعيد إنتاجها بوصفها الحاناً جديدة. بقي عاصي حتى اللحظة «المازورة» الفعلية التي قاست بها فيروز اختياراتها وإن أضاف زياد ذلك الكمّ من يومياتنا بصوت فيروز المغناج هذه المرّة، الشبابي والخارج عن الـ «ستيل» المعروف عنها مع الحفاظ على الروح الظليلة لمعاني القطع الأصلية وأزمنتها وإيقاعاتها الداخلية ومراميها الفنية والثقافية التي عمل زياد على تسجيلها (ما يقارب من عشرين أغنية مختارة من أرشيف عاصي وفيروز) تحت عنوان «الى عاصي».

بعد رحيل عاصي، فقدنا ذلك العنفوان، ولغة الجذور، والحب الذي يُذيب الأفئدة، ونسائم في القرى والسهول وبيوت القرميد وتلك الغصة القاتلة للشوق. وبقي لدينا ذلك الخلف غير الصالح من المغنين والمغنيات، والموسيقيين والموسيقيات، والشعراء والشاعرات الساعين الى قتل الإبداع بكل ما أوتيت حناجرهم من وعيد. وبكل تلك المكابرة على انعدام الصدق والموهبة.

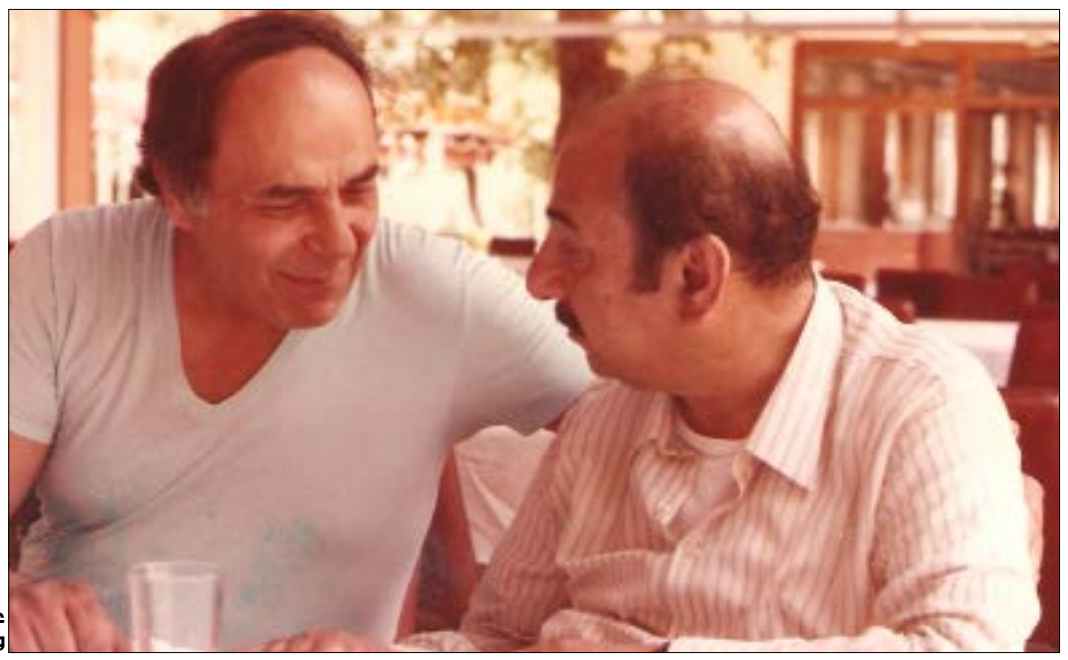

عاصي ومنصور